ابن سينا وحياته الاولى

بقلم الأستاذ محمد ثابت الفندى (ماجستير فى الفلسفة)

التراجم الأولى لحياته

لا يكاد يخلو مؤلف حديث يتعرض لذكر الإسلام ومدنيته الفكرية من الإشارة إلى ابن سينا ، مع ذكر ترجمة له تقصر أو تطول بقدر ما يتسع له المؤلف . فقد ترجم له فى أوربا فى العصر الحديث : تنمان ، ومهرن ، وليبرت ، وهرشبرج ، ودى بور ، وهورتن ، وبروكلمان ، ومكدونالد ، ونيكولسن ، وبراون ، ولوبون ، ومونك ، وهوبار ، ولوكارك ، ودى كونتج ، وجوتيه ، وكارادى فو ، وما سينيون ، وغير هؤلاء من المستشرقين . وترجم له من الشرقيين بالتركية كريم أفندى [1] . وبالعربية : جورجى زيدان ، وخير الدين الزركلى ، وفريد وجدى ، ولطفى جمعة ، وغيرهم .

وكل هذه التراجم المختلفة إنما ترجع فى الحقيقة إلى ترجمتين أو روايتين قديمتين مختلفتى الأصل ، تتمم إحداها الأخرى وتكملها . وأهم هاتين الروايتين وأوفاهما ليست على حال واحدة فى المراجع المختلفة التى وردت فيها : فتارة نجدها موجزة مختصرة ، وتارة نجدها ضافية مطولة . وأحياناً تعرض كما أملاها الفيلسوف على تلميذه الجوزجانى ، ومعها ما أضافه هذا التلميذ ، وأحياناً يتصرف فيها الكاتب فيعرضها من قبله بحيث لا نشعر ان ابن سينا قد أملى منها جزءها الأهم .

والواقع أن هذه الروايه ترجع إلى عصر الفيلسوف نفسه ، فهى تنبئنا أن ابن سينا قد أملى قسمها الأول على تلميذه الجوزجانى عند مالقيه « بجرجان » ، وكان ذلك حول عام ٤٠٣ هـ أى عند مابلغ الفيلسوف ثلاثة وثلاثين ربيعاً من حياته ، وكتب قسمها الآخر تلميذه المذكور ، وذلك بعد وفاة الفيلسوف عام ٤٢٨ هـ وقبل ٤٥٠ هـ الذى توفى فيها ذلك التلميذ .

وإذن فهذه الترجمة أصدق الترجمتين اللتين وجدتا للفيلسوف ، والأصل الأول الذى تفرعت عنه التراجم اللاحقة ، قديمها وحديثها ، أوربيها وشرقيها .

---

(١) ظهرت هذه الترجمة بجريدة « تصويرى أفكار » . راجع « المجلة الأسيوية » السلسلة السادسة ، ج ٢ ص ٢٢٩

وأقدم ماعثرنا عليه من المراجع التى وردت فيها هذه الرواية — وسنسميها منذ الآن الرواية العربية تمييزاً لها من الرواية الأخرى التى كتبت بالفارسية — هو كتاب «تاريخ حكماء الإسلام» لمصنفه الشيخ الإمام ظهير الدين أبى الحسن بن الإمام أبى القاسم البيهقى [1]؛ ذكر مؤلفه فى مقدمته أنه نسج فيه على منوال كتاب «صوان الحكمة» لمصنفه أبى على سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجزى الذى يرد اسمه فى موضع آخر من كتاب البيهقى المذكور على هذا النحو: أبو سليمان بن محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى. ولم يتعرض البيهقى فى كتابه هذا لحكماء اليونان ولكنه قصره على حكماء الاسلام وحدهم كما يؤخذ من عنوان الكتاب وموضوعه. ثم إنه لم يورد فيه تراجم جميع حكماء الاسلام الذين وردوا فى غيره من كتب تواريخ الحكماء وسيرهم؛ ولكنه اقتصر على مايقرب من الخمسين ترجمة، منها ما لايزيد على سطرين. ولعل ذلك يرجع إلى أنه جعل كتابه متمماً لكتاب «صوان الحكمة». قال البيهقى فى مقدمة تاريخه: «وكل من ذكره وأثبت اسمه مصنف كتاب «صوان الحكمة» فأنا ماسقيت شمار يخه وما ذكرت فوائده وتواريخه، فإنه أنصف فى ذكرهم وبالغ فى حقهم ونشر أردية جلهم ودقهم» [2]. والترجمة التى أوردها البيهقى فى كتابه لابن سينا هى أكبر التراجم التى ذكرت للفيلسوف، وأغزرها مادة وأقدمها أيضاً، لأن البيهقى — كما يؤخذ من الحوادث التى شهدها وذكرها فى مؤلفه — عاش فى مستهل القرن السادس الهجرى. إذ هو يذكر مثلاً أنه رأى الفيلسوف محمود الخوارزمى بمرو فى شهور سنة تسع عشر وخمسمائة. [3]

وفى منتصف القرن السابع الهجرى كتب جمال الدين أبو الحسن — الملقب بالقاضى الأكرم المشهور بجمال الدين بن القفطى أو القفطى فقط — كتاباً وسمه باسم «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» اختصره فيما بعد محمد بن على بن محمد الخطيبى الزوزنى (نسبة إلى زوزن وهى مدينة بإقليم قوهستان) فى كتاب أسماه على مايظن «المنتخبات الملتقطات من كتاب تاريخ الحكماء»، وقصره على أربعمائة وأربع عشرة ترجمة مرتبة على حروف الهجاء. والكتاب الذى نتداوله الآن بين أيدينا هو هذا المختصر. ويظهر أن اختصار الزوزنى قد لحق أيضاً ترجمة ابن سينا، لأننا لانجد فيه كثيراً مما نجده فى كتاب البيهقى — مع أن الأصل الذى استقيا منه ترجمة ابن سينا واحد بعينه كما تدل عليه ألفاظ الكتابين. وهو تلك الترجمة التى أملى جزءها الأول ابن سينا وأتم جزءها الأخير تلميذه الجوزجانى.

(١) توجد النسخة الوحيدة بالفارسية لهذا الكتاب المصورة عن مخطوط مكتبة برلين بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٦٦٦ تاريخ.

(٢) البيهقى «تاريخ حكماء الاسلام» مخطوط رقم ٣٦٦٦ ص ٣٤٢

(٣) » » » » » » ص ١٠١

وفى نفس عصر القفطى أو بعده بقليل جداً كتب موفق الدين أبو العباس أحمد ـ المعروف بابن أبى أصيبعة المتوفى عام ٦٦٨ هـ ١٢٧٠م ـ كتابه المشهور «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء»، ولما كان معظم أطباء العرب هم حكماؤهم ، فإن هذا الكتاب يذكر كثيراً من تراجم الحكماء، وهو يشمل نيفاً وثلثمائة وثمانين ترجمة مستفيضة راعى المؤلف فى ترتيبها طبقات الأمم ، إذ أورد لكل أمة أطباءها . وترجمة ابن أبى أصيبعة التى يذكرها للفيلسوف تفيدنا الشىء الكثير عن شعره، ويظهر أنه نخب الديوان الذى يعزى إلى ابن سينا المعروف باسم «ذات الطراز»[1]. وأثبت منتخباته فى آخر الترجمة ، كذلك يفيدنا شيئاً كثيراً عن مصنفات فيلسوفنا التى استطاع أن يقف على أمرها أو أن يطلع عليها ؛ ولذلك كان لكتاب ابن أبى أصيبعة قيمة خاصة فى ترجمة ابن سينا من جهة آثاره العلمية .

وظهرت بعد ذلك كتب مهمة فى التاريخ والسير منها كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان، ومنها « روضة الأفراح ونزهة الأرواح » لشمس الدين محمد بن محمد الشهرزورى ؛ ولهذين الكتابين قيمة فى فن التراجم والسير، إلا أنهما لا يفيدان شيئاً جديداً عن حياة ابن سينا على وجه الخصوص، فإن ابن خلكان يورد ما أورده القفطى بحذافيره اللهم إلا لبذة صغيرة عن اختلاف الآراء فى وفاة ابن سينا ، والشهرزورى أورد ما أورده البيهقى من غير زيادة أو نقصان .

وفى القرن الحادى عشر الهجرى نعثر على كتاب جليل لعالم ومحقق تركى شهرته «حاجى خليفة» (المتوفى ١٠٦٨ هـ ـ ١٦٥٨ م) ، وهو كتاب « كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون » طبع طبعة أوربية مع ترجمة لاتينية وقعت فى سبع مجلدات ، وهو يشتمل على أحد وخمسمائة وأربعة عشر ألف اسم لتصانيف مختلفة فى كل فرع من فروع العلم التى عرفها المسلمون وكتبوا فيها، ولهذا المؤلف قيمة خاصة فى موضوعنا هذا، لأنه ذكر من كتب ابن سينا ما لم تذكره رواية من الروايات السابقة قط، فهو قيم خطير عندنا بقدر ما المعرفة كتب الفيلسوف من قيمة وخطر.

تلك هى المصادر التى وردت فيها الترجمة الكبرى أو الرواية العربية لحياة ابن سينا، أما الرواية الأخرى التى سميناها فارسية فى صدر هذا الفصل ، فإنها غير معروفة فى اللغة العربية، وهى عبارة عن مجموعة من الأقاصيص والحوادث التى نسجت حول حياة ابن سينا أو التى وقعت له بالفعل ؛ وردت فى كتاب « شهار مقالة » أى المقالات الأربع، الذى ألفه بالفارسية أحمد بن عمر بن على السمرقندى الملقب (بنظامى عروضى)، وهو شخص غير معروف ولا مذكور فى كتب السير والتواريخ ، إلا أن الحوادث التى سردها عن حياته و الكتاب المشار إليه

(١) حاجى خليفة « كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون » جزء ٢ ص ١٥٦

تدلنا على أنه عاش فى النصف الأول من القرن السادس للهجرة ؛ لأنها وقعت بين سنتى ٤٠٥ هـ (١١١٠ م) و ٥٤٧هـ(١١٥٢م)،وبذلك يكون معاصراً للبيهقى.ومع ذلك فإن الفرق كبير بين روايته ورواية البيهقى ؛ ذلك لأن رواية البيهقى كما أوضحنا إنما يرجع تدوينها إلى عصر الفيلسوف نفسه،فى حين أن رواية السمرقندى إنما كتبت بعد وفاة ابن سينا بما لا يقل عن قرن.

ولقد نشر كتاب « المقالات الأربع » مترجماً باللغة الإنجليزية المستشرق (ادوارد براون) فى المجلة الآسيوية فى أكتوبر سنة ١٨٩٩؛ثم أعاد نشره مستقلا فيما بعد مع تعليقات تاريخية باسم Chahar Maqala .والمواضع التى تعرض فيها هذا المؤلف لذكر ابن سينا هى القصص التى أرقامها ١٤ ، ١٥ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٨ .

والتراجم التى تكتب عن فيلسوفنا فى الوقت الحاضر إنما تستمد مادتها الأساسية من هاتين الروايتين ،ويكمل هاتين الروايتين ما يذكر عرضاً عن ابن سينا فى كتب التاريخ العامة ، ككتاب « الكامل» لابن الأثير أو فى كتب التراجم الأخرى ككتاب « تذكرة الأولياء » الذى كتبه بالفارسية فريد الدين بن العطار. كذلك تكملها دراسة كتبه ورسائله التى كتبها،إذ هى توقفنا غالباً على الأزمان والأمكنة التى صنفها فيها،وتعرفنا بالمبرزين من رجال عصره الذين اتصلوا به فأهداهم مصنفاته أو تبادل وإياهم الرسائل؛ تلك هى المصادر الأولى التى تستقى منها ترجمة ابن سينا.

والآن وقد أوردنا تلك المصادر،فإنه يتعين علينا أن نستوحيها جميعها فى معرفة من هو ابن سينا الطفل الرضيع والناشىء الذكى،ومن هو ابن سينا الطبيب الشاب ؛ والفيلسوف الوقور الذى يقربه الملوك إليهم وينحنى أمامه العلماء اعترافاً بتفوقه، ومن هو ابن سينا الشخصية الفذة العجيبة التى كلما أمعنا فيها التأمل والنظر تبدت عظيمة جليلة كتلك الشخصيات التى يخلقها خيال القصاص حتى إن بعض الذين درسوها عدوها شخصية أسطورية إسلامية (١)

ميلاده وبدء ظهوره

عند ما آذن القرن الرابع الهجرى بالأفول، كانت بلاد فارس قد نفضت عنها سيادة الخلافة البغدادية وانقسمت إلى إمارات قوية مستقلة تمام الاستقلال :

ففى أقصى الشمال كانت إمارة خوارزم التى تعرف الآن بإقليم « خيوا Khiva » وتحكمها أسرة لم تعمر طويلاً ،كانت متخذة « كركانج » عاصمة لها،ثم إمارة « طبرستان » وهى الآن جيلان وما زندران (جنوب بحر قزوين) ؛ وكان يحكمها آنئذ آخر أمراء الدولة الزيارية شمس المعالى قابوس بن وشمكير ، وكانت جرجان عاصمة ملكه. وفى الغرب والجنوب كانت توجد الأسرة

(١) راجع فى مجلة تاريخ الأديان سنة ١٩٠٢ مقال الأستاذ Basset عن ابن سينا كشخصية أسطورية

البويهية التي لها فضل عظيم على العلوم والآداب في الإسلام ، حكم فرع منها بالري وآخر بهمذان ؛ وكانت تقوم في أصفهان دولة قوية قضى فيلسوفنا أخريات حياته في كنف أميرها علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه. وفي أقصى الشرق كانت توجد إمارة أفغانستان وكان يحكمها حينئذ السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي ، نسبة إلى غزنة عاصمة ملكه ، ثم إمارة خراسان وكانت تحكمها الأسرة السامانية متخذة بخارى عاصمة لها .

في إمارة خراسان هذه وإبان حكم السلطان نوح بن منصور السامانى ، انتقل رجل من أهل بلخ إلى بخارى العاصمة في وقت غير معروف . ويظهر أنه كان على شيء من العلم والجاه يؤهله لخدمة السلطان ، ذلك لأنه تولى العمل لنوح بن منصور السامانى بقرية من أمهات قرى العاصمة يقال لها (خرميثن) ، وكان بقربها قرية يقال لها (أفشنة) تزوج منها هذا العامل بامرأة اسمها - كما يذكره البيهقى وابن خلكان والشهرزورى - (ستارة) . وفي أفشنة هذه رزق الزوجان سنة ٣٧٠ هـ ٩٨٠ م[1] بأول ابنيهما وهو فيلسوفنا الذي نتحدث عنه في هذا البحث .

وبعد خمس سنوات أي عام ٣٧٥ هـ الموافق ٩٨٥ م ، رزقا بثانيهما ، وتختلف الروايات في اسم هذا الأخير ، فإن ابن أبي أصيبعة عند تعرضه لكتاب « الهداية » الذي صنفه فيلسوفنا بهمذان - على مايظهر - يذهب إلى أن اسمه علي ، حيث قال : « الهداية في الحكمة صنفه وهو محبوس بقلعة فردجان لأخيه علي » [2] ، ويذهب ظهير الدين البيهقي إلى أن اسمه محمود فيقول : « ثم ولد أخوه محمود بعده بخمس سنين » [3]

ونرجح هذا القول الأخير لأنه يبدو أن يكون اسم أحد الشقيقين (علي) ، وكنية الآخر (أبو علي) ، إذا أن فيلسوفنا - على ما اتفقت عليه الروايات كلها - هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا ، قال ابن خلكان : « وسينا بكسر السين المهملة وسكون الباء المثناة من تحتها وفتح النون وبعدها ألف ممدودة » [4]

ولقد اشتهر (أبو علي) فيما بعد باسم الشيخ « الرئيس » ، وهذه الشهرة ترجع إلى عصره نفسه ، لأنه هكذا نجد تلميذه الجوزجاني يلقبه فيقول « الشيخ الرئيس » ، ويرى الجميع أنه لقب بذلك اللقب لعلو كعبه في العلوم كلها وخاصة الطب[5] . وليس هذا الرأي بمستنكر ، لولا أن غير ابن سينا ممن

(١) في بعض الروايات كالرواية المثبتة بأول كتاب منطق المشرقيين المطبوع بمصر أنه ولد عام ٣٧٠ هـ وهذا غير صحيح .

(٢) ابن أبي اصيبعة طبقات الاطباء ، ج ٢ ص ١٩

(٣) البيهقي تاريخ حكماء الاسلام ص ٢٧

(٤) ابن خلكان ، وفيات الاعيان جزء ١ ص ١٩٣

(٥) جوستاف لوبون ص ٥٢٨ Civilis des Arabes . Lebon

عاصره قد لقب بهذا اللقب أيضاً من غير أن يكون له فى العلوم والطب شهرة. بل من غير أن تكون له فيها خبرة. وذلك مثل أبى الحسن سهل بن محمد السهلى، وهو ممن اتصل بهم ابن سينا وقدم إليهم بعض آثاره العلمية المهمة. فقد كان يلقب « بالرئيس ». ولذلك فإنا نرجح أن الرئيس لقب من الألقاب السياسية كان يلقب به الوزراء تمييزاً لهم وتعظيماً. ولذلك فقد لقب به السهلى كما لقب به ابن سينا لأنهما كانا وزيرين، ويظهر أيضاً أن فيلسوفنا كان يلقب (بشرف الملك)[١] كما كان يلقب وزراء ذلك العصر (بتاج الملك) وغير ذلك من ألقاب التشريف والتعظيم.

فالأسرة التى نبت فيها فيلسوفنا كانت أسرة صغيرة محدودة، ونحن لا نكاد نعرف شيئاً ذا بال عن أعضائها الثلاثة: الأبوين والأخ محمود؛ فكل ما نعرفه عن محمود أنه سيلزم أخاه الفيلسوف كتلميذ لا طوال حياته، وسيسجن معه فى قلعة فردجان حيث يصنف له الفيلسوف رسالة من رسائله الكثيرة التى كتبها بتلك القلعة.

أما الأب فيظهر أنه كان ذا نزعة فلسفية وذوق علمى؛ فقد كان يطالع «رسائل إخوان الصفا»[٢]. وكان يستحث ابنيه على قراءتها وكان يستضيف بداره الحكماء. فإن فيلسوفنا يروى لنا أن أباه كان يرتبط بداره الفيلسوف أبا عبد الله الناتلى؛ وذلك ببخارى عندما انتقل إليها بعائلته ليثقف ابنيه ويعلمهما، ويظهر أيضاً أنه لبى دعوة فاطمى مصر التى تنشت فى طول بلاد الاسلام وعرضها آنئذ. واتخذ الاسماعيلية لمذهباً يدعو إليه ابنيه.

قال فيلسوفنا و ترجمته: « وكان أبى ممن أجاب داعى المصريين ويعد من الاسماعيلية. وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويرقونهم، وكذلك أخى، وكانا ربما تذاكرا بينهما وأنا أسمعهما وأدرك مايقولانه ولا تقبله نفسى، وابتدآ يدعوانى أيضاً إليه ويجريان على لسانهما ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند »[٣].

ثم لا نعرف شيئاً عن هذا الأب الذى حبب الفلسفة والهندسة وحساب الهند إلى ابنه الناشىء، كما لا نعلم شيئاً البتة عن أمه (ستارة).

[للبحث بقية] محمد ثابت الفندى

---

(١) البيهقى: تاريخ حكماء الاسلام ص ٢٥

(٢) البيهقى: تاريخ حكماء الاسلام ص ٢٧

(٣) القفطى: تاريخ الحكماء ص ٣٤٠. وتذكر أيضاً فى كل الروايات